

"حضور الصّحراء ومظهرات التّراث الثقافي الصّحراوي المادي واللامادي في رواية "ما تشتهيهِ الرّوح" لعبد الرّشيد هميسي".

Exploring the Sahara (lit. The Desert) : Unveiling Tangible and
Intangible Saharan Cultural Heritage in Abderrachid Hemici's Novel
«Ma Tachtahih E'Rouh» (lit. What the Soul Desires)



د. غنية جدع *

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي - تبسة.

ghania.djeda@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/02 تاريخ القبول 2025/05/12 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص:

تبحث هذه الدّراسة الموسومة 'بحضور الصّحراء ومظهرات التّراث الثقافي الصّحراوي المادي واللامادي في رواية "ما تشتهيهِ الرّوح" في الأبعاد الرّمزيّة للصّحراء وتكشف عن التّمظهرات التّراثيّة فيها، حيثُ تجلّت على مستويين: 'حسن' وما كان يقوم به عندما غلبته نفسه وتتبع شهواتها، ومن جهة أخرى استحضرتها الحاجة 'نعيمه' بطريقة الشّوق لما كانت تحكيه لها جدّتها عن مسقط رأسها من عادات وموروث ثقافي، فبين الماضي الجميل للصّحراء والحاضر المتغيّر تتجلّى قيمة التّناقض في المكان بين القداسة والتّدنيس، وتبرز لنا طبائع الشّخصيات ومصائرهما بتطوّر الأحداث ، وتغيّر طريقة تفكير شخصيّة "حسن" بفضل المرأة "إسلام" وانتقاله من عالم مدّنس وضيع إلى رفعة الأخلاق.

الكلمات المفتاحية: التّراث - التّراث الثقافي - الصّحراء - عبد الرّشد هميسي.

* المؤلف المراسل

Abstract:

This study, titled « Exploring the Sahara : Unveiling Tangible and Intangible Cultural Heritage in Abderrachid Hemici's Novel Ma Tachtahih E'Rouh, » delves into the symbolic layers of the desert while uncovering the rich cultural heritage embedded in the novel. Through the lives of two contrasting characters, we have « Hasan, » whose actions—propelled by his carnal desires—reveal one facet of this cultural heritage ; and « Naima » who rekindles this heritage with a nostalgic yearning, echoing the tales her grandmother once told her about the customs and cultural heritage of her native land. Set against the backdrop of the desert's idyllic past and its ever-shifting present, the novel highlights a tension reverence and irreverence. As the plot unravels, the characters' true natures and destinies come to light, notably in the transformation of « Hasan. » Guided by the influence of « Islam, » a female character, he journeys from a realm of corruption and degradation to one of moral restoration and elevation.

key words: Heritage – Cultural Heritage – Desert – Abderrachid Hemici

مقدمة:

تشكّل الصّحراء موضوعاً مهماً وتيمة جوهرية في الكتابات الأدبية، شعراً ونثراً، حيث أثارت قريحة الشعراء للتغني بمنظرها الجذابة ورمالها الذهبية، وحركت أقلام الأدباء للكتابة عنها لما تحمله من دلالات رمزية وأبعاد دلالية على المستوى الثقافي والتاريخي والطبيعي وكذا الحضاري، ولعلّ صحراء وادي سوف حظيت باهتمام كبير من لدن كتّابها وشعراءها أيضاً، فنجد على سبيل المثال قصائد وأغاني شعبية تغنت بجمالها وشساعتها، وروايات كتبت انطلاقاً من فضائها الرّحب، ولعلّ رواية 'عبد الرّشيد هميسي' ستكون واحدة من الروايات التي ستنقل لنا صورة عن التّراث الثقافي الصّحراوي، وبالرّغم من أنّ التّيمة الجوهريّة لها ليست الصّحراء، لكنّ حضورها سيكون واضحاً من خلال تلك اللفّات الثقافية لأجواء الوادي من لدن شخصيّة تتذكّر حكايات سردتها لها جدّها عن جمال هذه المنطقة وعن بساطة أهلها وكرمهم.

حيثُ تسعى هذه الدراسة للكشف عن التّراث الثقافي الصّحراوي في رواية "ما تشتهيهِ الرّوح" بالاعتماد على المنهج السّيميائي في كشف الرّموز وآليات منهجية أخرى حسب طبيعة الموضوع وما يقتضيه، وتنطلق من طرح الإشكالية التّالية:

- كيف كان حضور الصّحراء في رواية "ما تشتهيهِ الرّوح" لعبد الرّشيد هميسي؟

- كيف تمظهر التّراث الثقافي الصّحراوي على مستوى هذه الرواية؟

فرضيات الموضوع:

- بما أنّ الكاتب 'عبد الرّشيد هميسي' من مدينة الوادي المعروفة بصحرائها الشّاسعة فمن المتوقّع أن نجد صداها في نصّه، باعتبار أنّ الأديب ابن بيئته، فسيُتأثر بها ويؤثّر فيها.

- من خلال عتبة العنوان 'ما تشتهيهِ الرّوح' يحول في الخاطر حضور أبعاد روحية وثقافية وعقائدية وكذا تأملية ربّما قد تتعلّق بالمكان في قضية ما، كما أنّ تتبّع تيمة الصّحراء سيفضي إلى أبعاد ثقافية وعادات وتراث مادي ولا مادي سنقف عندها.

أوّلا: في مفهوم التّراث والتّراث الثقافي

سيكون المبحث الأول حول تعريف التّراث: لغه واصطلاحا عند ابن منظور، وفي القاموس الإنجليزي oxford، ثمّ سنقف ضمن هذا المبحث على أنواع التّراث، بالتركيز أكثر على التّراث الثقافي.

1/ تعريف التراث لغة:

تُشتقّ لفظة التّراث في أصل اللغة من "الفعل الثلاثي وَرَثَ، " وَرَثَ، الوارث: صفةٌ من صفاتِ الله عزَّ وجلَّ، وهو الباقي الدائم الذي يرثُ الخلائق، وَيَبْقَى بَعْدَ فَنَائِهِمْ، وَاللهُ عزَّ وجلَّ، يرثُ الأرضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ... وَرَثَهُ مَالَهُ وَجَدَهُ، وَوَرِثَهُ عَنْهُ

وَرِثًا وَرِثَةً وَوَرِثَةً وَإِرَاثَةً... الْوَرِثُ وَالْوَرِثُ وَالْإِرَاثُ وَالْإِرَاثُ وَاحِدٌ.. الميراثُ أصله مَوْرَاثٌ، انْقَلَبَتْ الْوَاوُ يَاءً لِكَسْرَةِ مَا قَبْلَهَا، وَالتَّوْرَاثُ أَصْلُ النَّاءِ فِيهِ وَاوُ [...] وَيُقَالُ وَرِثْتُ فَلَانًا مَا لَا أَرِثُهُ وَرِثًا إِذَا مَاتَ مُؤَرِّثُكَ فَصَارَ مِيرَاثَهُ لَكَ¹ حَيْثُ رَكَّزَ هَذَا التَّعْرِيفُ فِي بَدَايَتِهِ عَلَى اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ أَلَا وَهُوَ الْوَارِثُ وَهُوَ صِفَةٌ لِلْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي يَبْقَى عِنْدَ فَنَاءِ الْكُلِّ، وَذَلِكَ بِاسْتِحْضَارِ السِّيَاقِ الدِّينِيِّ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالتِّي تَوَكَّدَ خُلُودُ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ فِي الْكُونِ وَوَرِثَتُهُ لِكُلِّ شَيْءٍ فِيهِ.

وَبَيَّنَ أَصْلَ الْكَلِمَةِ وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَمَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنْ تَحْوِيلٍ فِي صِيغَتِهَا الصَّرْفِيَّةِ، فَمِنْ الْوَرَاثِ إِلَى التَّوْرَاثِ، وَأَشَارَ إِلَى تَعَدُّدِ التَّسْمِيَّاتِ وَالْمَدْلُولِ وَاحِدٌ وَهُوَ: التَّرَكَةُ الْمَادِيَّةُ الْمَالِيَّةُ الَّتِي تَبْقَى بَعْدَ وَفَاةِ الْمَوْرِثِ، كَمَا يَقُولُ ابْنُ مَنْظُورٍ أَيْضًا: "الْوَرِثُ وَالْمِيرَاثُ وَالْإِرَاثُ فِي الْحَسَبِ [...]" وَوَرِثَ فِي مَالِهِ أَدْخَلَ فِيهِ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لِلْوَرِثَةِ² وَأَشَارَ فِي ثَنَائِهِ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِنَ التَّرَكَاتِ الَّتِي تُورِثُ غَيْرَ الْمَالِ وَهِيَ الْحَسَبُ وَالنَّسَبُ، وَمُنَحَ الْحَقَّ لِلْمَوْرِثِ إِدْخَالَ غَيْرِ أَهْلِهِ فِي الْمَوْرُوثِ وَالْإِنْتِفَاعَ بِهِ وَقَدْ يَكْتُبُ ذَلِكَ فِي الْوَصِيَّةِ مِثْلًا.

أَمَّا فِي الْمَعْجَمِ الْفَرَنْسِيِّ 'الْأَلَان راي' فَالتَّوْرَاثُ جَاءَ بِمَدْلُولِ "تَرَكةُ الأهل"³ دُونَ تَحْدِيدِ نَوْعِ هَذِهِ التَّرَكَةِ، وَالتِّي قَدْ تَضَمَّتْ مُخْتَلَفَ الشَّرَاوَاتِ وَالْأَمْوَالِ وَالْعَقَارَاتِ الْمَتْرُوكَةِ بَعْدَ مَوْتِ الْوَالِدِينَ.

2/ تعريف التّراث اصطلاحاً:

قَبْلَ أَنْ نَحْدِدَ الدَّلَالَاتِ الْإِصْطِلَاحِيَّةَ لِلتَّوْرَاثِ، يَجْدُرُ بِنَا الْإِشَارَةَ إِلَى الْحِيْثِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ لِلْإِهْتِمَامِ بِهَذَا الْآخِرِ، حَيْثُ كَانَ الْمَلَاذِ الْآمِنُ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ النِّقَادُ وَالبَاحِثِينَ وَكَذَا الدَّارِسِينَ فِي مُخْتَلَفِ الْمَجَالَاتِ بِاعْتِبَارِهِ رَمْزًا لِلتَّمَسُّكِ بِالْهُوِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَشَاهِدًا عَلَى

قدراتهم ومجهوداتهم الكبيرة التي بذلوها، مقارنة مع الحاضر الذي يؤكد تفوق الآخر ومركزيته.

يدور المعنى الاصطلاحي للتراث حول "ما خلفه السلف من آثار علمية وفنية وأدبية، مما يعتبر نفيسا لتقاليد العصر الحاضر وروحه"⁴ إذ تتباين الإنجازات الموروثة بتباين المجالات "مثال ذلك الكتب التي حققها ونشرها مركز تحقيق التراث المتصل بدار الكتب في القاهرة، وكذلك ما تحتويه المتاحف والمكاتب من آثار تعتبر جزءا من حضارة الإنسان"⁵ وغيرها من المجهودات التي تهتم ببعث التراث وإحياءه وقراءته.

يُعدّ الناقد المصري 'جابر عصفور' -رحمه الله- أحد أبرز المهتمين بالتراث، وله الكثير من الكتب النقدية التي تناول فيها هذا الموضوع بالبحث والدّرس، من بينها: قراءة التراث النقدي، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، مفهوم الشعر، يعرف التراث على أنه: "كل ما ورثناه تاريخيًا عن أسلافنا الذين هم الأمة البشرية التي نحن امتداد طبيعي لها"⁶ ويشير هذا التعريف إلى نظرتِه للتراث على أنه موروث إنساني مشترك لدى كل البشر.

وما يؤكد هذا المنظور قوله: "إنّ هذا التراث خارج تكوين وعي قارئه من حيث هو إنجاز إنساني له شروطه التاريخية و أنساقه المستقلة في الماضي"⁷ وحسب اعتقاد بعض النقاد والباحثين فإنّ 'جابر عصفور' بهذا المنظور قد خلط بين تراث الأنا وتراث الآخر باسم الإنجازات الإنسانية المشتركة.

ومن بين الباحثين الذين يفرقون بين تراث الأنا وتراث الآخر نجد 'عبد السلام بنعبد العالي' - ويعتبر أنّ تراث الأنا "موشوم على أجسامنا عالق بأذهاننا، منقوش على جدراننا، حال لغتنا، مكتوب في لا وعينا"⁸ وهو تعريف يبيّن خصوصية التراث وارتباطه الوثيق بالهوية واللغة والوعي واللاوعي، فالتراث العربي مختلف عن تراث الآخر

كنتيجة حتميّة لاختلاف نخط التّفكير أولاً وطبيعة العقل والتّكوين الدّيني والحضاري ثانياً، وما نظرة 'جابر عصفور' لإنسانيّة التّراث إلّا توجّهه اللّبرالي، لكن وبالرّغم من ذلك فالواقع لا ينفي وجود موروثات تشاركيّة بين الإنسانيّة.

والتّراث أنواع وأشكال فهناك الموروث المادي والمعنوي، أمّا الماديّ فهو ما يشمل الموروث الملموس من مباني وعمران ومنجزات بقيت شاهداً على تركة السّابّقين، أمّا التّراث المعنوي فيشمل المحسوس وكل ما بقي وترسّخ من عادات وتقاليد وأفكار وطقوس دينيّة. تعبّر عن ثقافات كل مجتمع.

أمّا التّراث الثّقافي فهو ما يعبّر عن طريقة تفكير وعيش مجتمع وأهمّ ممارساته الثّقافيّة وطقوسه، لغته، عاداته وتقاليد حرفة ومسكنه ومعمار، ويدلّ على انتماءه وخصوصيّة ويضمّ ما هو مادي وغير ماديّ.

ثانياً- ملخّص الرّواية:

تحكي رواية (ما تشتهيهِ الرّوح) قصّة 'حسين' شاب من وادي سوف، عاصي لله، مدمن على المخدّرات وشارب للخمر، يتتبع مجالس الفجور والسّكر مع صاحبه 'مسعود الضّبع' الذي كان يأخذه معه لمجالس النّساء الفاسقات الفاجرات، وفي خضم هذا الفجور والعصيان رأى مناما - كان بمثابة مؤشّر للتّوبة والعودة لما تشتهيهِ الرّوح- قصّد الشّيوخ لتفسيره، يقول: "في المنام رأيت رجلاً عليه نور. يقول لي: "بلغ إسلام المرادي: "كلّ شيء في حينه، الله لا يهمل أحداً. حان حين القدر. جفّت الأقلام وطويت الصّحف" الحراش-الجزائر العاصمة"⁹ وما كان منه إلى أن سافر من صحراء وادي سوف إلى مدينة الحراش بالجزائر العاصمة بعدما تكبّر معه المنام أربع عشرة مرّة، حيث وجد 'إسلام المرادي' ووالدتها بعد بحث طويل عن هذه الشّخصيّة اللّغز في الشّوارع و المقاهي والمساجد، والأندية، ودور الثّقافة أين وجد ضالّته هناك

عند صاحب الاستقبال الذي أخبره عن عملها (صاحبة جمعية تكفل الأيتام) ومكان إقامتها (قرب فندق الجزائر).

جمعتهم الصدفة في شارع من شوارع الحراش عندما فقدت 'الحاجة' نعيمة' الوعي ووقعت مغشياً عليها بسبب مرض السكرى وضغط الدم، فساعدتها ونقلها مع ابنتها للبيت، ليتبين له من بعد أنّها المرأة المقصودة التي أرسله القدر إليها، فما كان منهما إلّا دعوه للإقامة عندهم بدلا من البقاء في الفندق بعدما أخبر الحاجة أنّه صحفي جاء بغرض إقامة تحقيق صحفي مع ابنتها إسلام.

تمرّ الأيام وتتسارع الأحداث ليجد 'حسن' نفسه أمام نموذج للمرأة الصالحة النقية الزاهدة في دينها، والعاشقة للذات الإلهية، أنثى استطاعت أن ترسم له نظرة مغايرة للوجود، فعلى غير ما ألف وعاش واستلذذ بالفاتنات، أدرك الجمال الحقيقي للكون والوجود، وسرّ الحياة وطعم العبادة والصلاة، في مدينة الحراش وجد المرأة التي رسمت له معالم الطريق إلى الله وتعلّق الرّوح بالذات الإلهية.

تتراوح أحداث الرواية بين مدينة وادي سوف والحراش، صحراء شهدت على مرحلة شبابية فاسدة 'حسن شرقي' الذي يعيش حالة من الاغتراب الذاتي وصراع بين الشهوة وصحوة الضمير، ورحلة إلى مدينة أخرى حيث أدرك التور والسرّ الحقيقي للوجود واكتشاف الرّوح بقهر جماع الشهوة، رواية بُنيت على الحكيم والوصف وتخلّلتها الرسائل في صفحاتها الأخيرة خاصة بين 'حسن شرقي' و'إسلام المرادي' بعد عودته للوادي، لتختتم بطلب الزّواج منها وردّها بالقبول واكتشاف شفرة المنام.

ثالثا- الصّحراء ومظهرات التّراث في رواية 'ما تشتهيهِ الرّوح':

تحكي رواية 'ما تشتهيهِ الرّوح' للكاتب الجزائري 'عبد الرّشيد الهميسي' رحلة شاب صحراوي من ولاية وادي سوف إلى مدينة الحراش بالجزائر العاصمة، بعد رؤيته لنام

تكرّر مرّات ومرّات، فسافر في سبيل تفسيره، فتختصر لنا هذه الرّواية رحلةً من عالم المجون والفساد إلى الإيمان والتّوبة لمعانقة ما تشتهيهِ الرّوح من تعلّق بحبّ الله والرضا بما قسمه ومناجاته في كلّ وقت وحين في الصّلاة، والدّعاء والانتصار على أهواء النّفس وغرائرها.

وبعد الوقوف عند أهمّ محطات الرّواية وفهم غايتها السّامية في تصوير رحلة الإنسان من عالم المادّة والجسد واللّذة إلى عالم الرّوح والطّهارة والنّقاء والتعلّق بالله والآخرة تهدف هذه الدّراسة للكشف عن حضور الصّحراء والتراث في هذا العمل الرّوائي الّذي حاز على الجائزة الوطنيّة للرّواية القصيرة سنة 2016.

فالصّحراء التي تمثّل البيئة التي احتضنت كاتب هذه الرواية، كانت أيضا هي الفضاء الّذي نشأت وترعرعت فيها الشّخصيّة المحوريّة في هذا المتن الرّوائي (حسن شرقي)، حيث كانت شاهدا حيّا لتصرّفات وأفعال هذه الشّخصيّة التي غالبا ما كانت نفسها الأمّارة بالسّوء تقودها لمراتع الهوى والمجون في غياهب الصّحراء، ومن جهة أخرى وجدنا صورة وتصورًا يحفّه الحنين للماضي الصّحراوي بمنطقة وادي سوف ، بمبانيها ونخيلها، وعاداتها واحتفالاتها الشّعبيّة من لدن 'الحاجة نعيمة' وهي تسترجع حكايات والدتها وذكرياتها فيها عندما كانت طفلة.

وهنا تبرز المفارقة في توظيف المكان أو الفضاء، فما هو مألوف لدينا أنّ الصّحراء بيئة محافظة، سكّانها معروفون بالأخلاق الحميدة وحفظ كتاب الله إلى غير ذلك، إذ عكس الكاتب هذا التّصور وكسر أفق توقّع القارئ، فربط الفساد بشباب من الصّحراء يتيه في عالم اللّذة ويغرق في بحر شهواته، يرسله القدر والمنام إلى مدينة الحرّاش ليلتقي بامرأة تكون سببا في توبته وعودته إلى الله، والرّابط بينهما دعاء في ظاهر الغيب من لدن امرأة صالحة الرّواج من رجل فاسد يتوب على يديها فكان المنام

شفرة بينهما ولغزا يفكّ في آخر الرّواية وينتهي بالتّوبة وقبول عرض الرّواج والعودة لرمال الوادي.

وفي لقاء التّعارف الأوّل بين 'حسن شرقي' ووالدة 'إسلام مرادي' دار بينهما حوار، يقول: "و حين تجاذبنا الأصول عرّفتها بنفسي أيّ من ولاية الوادي، ففرحت كثيرا لأنّ جدّتها لأُمّها "سوفيّة" فأخذت تحدّثني عن "وادي سوف" التي ذهبت إليها مرّة واحدة في طفولتها سنة 1967 وعن الأشياء التي رآها هناك، الإبل في شموخها، والرّمال المذهبة الصّافية ذات الأبراج التي ظنّنت لشساعتها أنّها لا تنتهي. والشّرثمان" الأملس المخطط بالبني وغير المخطّط والسّحليّة، والورن، والعقرب الأصفر الملعون، والأحراش التي يحتطب منها البعض"¹⁰ حيثُ يَصوّر لنا هذا المقطع السّردّي الوصفّي البيئة الصّحراويّة، من خلال وجود الجمال التي يوحي شكلها بمدى صبرها وتحملها لقساوة الطّبيعة وحرارة الشّمس، لكن ورغم ذلك تراها شامخة صلبة، وكذا تصف الشّخصيّة رمال الوادي الذهبيّة ومدى شساعة فضاءها وامتدادها مع النّظر.

لتنقل لوصف حيوان زاحف معروف في الصّحراء ألا وهو 'الشّرثمان' بنوعيه، وكذا السّحليّة القادرة على التكيف مع البيئة الصّحراوية الوعرة، وصولا عند العقرب الكائن الخطير جدّا بألوانه المتماهية مع صفار رمال الصّحراء، والمعروفة بطبيعة قشرتها الصّلبة التي تتحمّل قساوة البيداء والحرارة الشّديدة، حيثُ تسهم هذه الأخيرة وتساعد على تكاثرها.

دون أن تنسى السّوق الشّعبي "الّذي يضع فيه النّاس بضاعتهم على الأرض دون ترتيب وديكور وزخرفة وأصوات الباعة المتداخلة التي تبين أحيانا وتنبهم أحيانا كثيرة. والأفراح وما فيها من أكالات شعبيّة كالكسكس "بالدهان" و"التّشيشة". وما فيها

من رقص، كرقصة الرّجال "بالمكحلة" في "الرّنة" أو رقصه الخيل الّذي يخطّ أقدامه الأربعة متناغما مع إيقاعات الدف.

وكان يبعث الحيرة في نفسها ذلك "الرّناجي" الّذي لا يكفّ عن النّفخ في قصبته بوجهه محمر وأوداج منتفخة، وكأنّ سائر جسده تحوّل إلى رئة¹¹. فالسّوق السّوفي قديما -مثل غيره من الأسواق الشعبيّة- لم يكن يعتدّ بالنّظام ولا بالانسجام في بناء وعرض السّلع، فالغاية هي التّجارة والبيع السّريع لا الشّكل والزّخرفة، وهو ما لا نراه اليوم، فما هو موجود عكس ما كان سابقا تماما من خلال اهتمام الباعة بالديكور إرضاءً لذوق المستهلك المعاصر وشداً لانتباهه، وكذلك سعيا لرسم صورة مميّزة للتّجارة الصّحراويّة.

كما أشار المقطع السّابق لتلك البوليْفونيّة والكرنفاليّة النّاتجة عن ضوضاء الباعة وهم يتنافسون لشدّ انتباه المستهلكين، لدرجة يصبح التّفريق بينها أمرا صعبا.

وراحت تنقل لنا صورة للأفراح الشعبيّة السّوفيّة، من خلال الطّبق الشّعبي المعروف "كسكس بالدهان"، وكذا طبق "التشيشة" وهناك من يسميها 'دشيشة' (قمح مطحون خشن) وهي أطباق شعبيّة كانت معروفة بها ولاية الوادي على غرار بعض ولايات الوطن، وهي مأكولات صحيّة شعبيّة تقليديّة توارثوها عبر الأجيال وبقيت إلى اليوم، خاصّة في المناسبات.

حيثّ تقوم المرأة السّوفيّة بمزج اللحم والحمص والبقول والمشمش المحفّف (الفرماس) والزيت مع القمح المطحون في قدر من الماء، ثمّ الملح والتّوابل، تمزج جيّدا ثمّ تبقى لمدة تقارب نصف ساعة في قدر مضغوط، وبعد مرور هذه الفترة تضيف عليها حبّات طماطم مرحيّة ونصف ملعقة طماطم معجون، وكذا الثوم لتبقيها نصف ساعة أخرى على نار متوسّطة وتنضج على مهل، ثمّ تضيف لمستها الخاصة من خلال الكليل

و'الذرور' و'الفاح' والفلفل الأخضر، لتبقيها مدّة ربع ساعة ثمّ تقدمها للعائلة أو الضيوف وفقا لطريقتها التّقليديّة أو بإضفاء لمستها الخاصّة.



وحديثنا هذه الشّخصيّة عن التّقاليد التّراثيّة بصحراء وادي سوف من خلال الاحتفال في الأعراس بالرقص بالملكحلة وكذا نقلت لنا بهجة الأفراح السّوفيّة من خلال رقصة الخيل المدرّبة، ووصفت لنا 'الرّرناجي' وهو ينفخ في القصبة بجهد حتى يتغيّر لون وجهه، حيثُ تمثّل الرّنة أحد أهم رموز الهوية الثقافيّة الشّعبية الجزائريّة وفي منطقة وادي سوف على وجه الخصوص، وتكاد لا تغيب عن أغلب مناسباتهم وأعراسهم.



وتشكّل النّخلة رمزا معروفا عن الصّحراء، تحمل دلالات الشّموخ والصّلابة والانتماء، تستذكرها الحاجة 'نعيمة' عندما زارت مدينة الوادي فيما مضى "وأعجبتها النّخلة صامدة شامخة غير مبالية بالريّح وعويلها، تصعد إلى الشّمس تظلّ النّاس وتعولهم وهي زاهدة في عطاياهم"¹² فأول ما يستقبل عين الزائر للصّحراء عموما وصحراء وادي سوف خصوصا بعد الرّمال الذهبية والجبال وجود النّخيل، تلك الأشجار الثّابتة الرّاسخة العالية التي تجود بظلّها على الجميع دون استثناء، وتعطيهم ثمارها.

كما تنقل لنا الحاجة 'نعيمة' صورة للتّراث الماديّ الثقافي الصّحراوي، فتقول: "وحّدتني عن المنسج وخيوطه الدّقيقة المرتّبة ترتيبا عموديا وكيف تفني السّوفيات أعمارهنّ وراءه كي تصنع منه الأفرشة والبرائيس والقشاشيب، ليعنها كي ينقذن أبناءهنّ من الجوع"¹³ فهي صورة للمرأة المتفانية في عملها، والتي تسعى للكسب الحلال من خلال أشغال يدويّة صعبة تحتاج جهدا جسديّا وتركيزا عقليّا لما تتطلبه من دقّة وتركيز، ومن جانب آخر توصل لنا صورة الأم التي تضجّ براحتها في سبيل

راحة فلذات كبدها، وتعبر عن الصّعوبات الحياتيّة التي كانت تواجه هذه الأسر الأمر الذي يدفع المرأة نحو العمل، وربّما الجانب الإيجابي هو تمسك السّوفيات بحرفة اليد والذي يوحي بقيمة هذا النّشاط لديهنّ.

ومن خلال هذه الشّخصيات يرسم لنا الكاتب صورة للتّراث الثقافي الصّحراوي من خلال هذه الحرفة والصّناعة التّقليديّة التي ما تزال تعبر عن ماضي المجتمع السّوفي الذي لا يغفل عن ماضيه ولا ينكره، وإنّما يقحمه في حاضره صونا للذاكرة والموروث؛ وسعيا لإشهار هذه الصّناعة وبعث السياحة الصّحراوية وهو من الغايات النّفعيّة للأعمال الفنّيّة.



دون أن تغفل الشّخصيّة عن تذكّر العمران والأبنية في مدينة الوادي قديما، فوصفت لنا المساجد "وكان قد أعجبتها المساجد ذات الصّمع القصيرة وباحتها المملوءة بالرّمّل المذهب وحيطانها المبنية بالجبس والأحجار ومنظر الأطفال المحلوقة رؤوسهم والمسمّرة

جلودهم بفعل الشّمس الحارقة، وهم يقرؤون القرآن في ألواح خشبيّة مكتوب عليها بعض الآيات باللّون البنيّ النّاصع بخطّ ثعلبيّ قديم. وقد توسّطهم شيخ بيضاء لحيته يقال له "نعم سيدي"¹⁴ وهي صورة لنمط بناء مساجد مدينة الألف قبة وقبة، فالمساجد تعلوها القباب وكذلك البيوت. ونقلنا لنا مشهداً للأطفال وهم يسعون في حفظ كتاب الله، من خلال الألواح وعدّتهم التّقليديّة التي ألفوها وتوارثوها عن أجدادهم، وهو مظهر مازال إلى غاية اليوم في بعض مناطق الوطن خاصّة الصّحراويّة منها.

وهو ما يحيلنا على البعد الدّيني الإسلاميّ في هذه الرّواية، حيثُ أحيى الكاتب هذه العادة الدّينيّة في طلب العلم الشّرعّي في روايته المعاصرة هذه.

لتصف لنا حجرة الدّرس وتعلم كتاب الله والأطفال ملتقّون بشيوخهم بكلّ احترام وودّ وسعي في طلب العلم الشّرعّي.



ولم تنسِ الحاجة شكل وبنية البيت السّوّفي "أمّا بيت جدّها فقد كان ككلّ البيوت. له باحة فسيحة من الرّمل يتوسّطها بئر ونخلتان، أمّا الغرف فقد كانت قصيرة الحيطان

وغرفة واحدة فسيحة لها ثلاثة مداخل دون أبواب تسمّى "الصّبّاط" مخصّصة لفصل الخريف، فصل الغلّة.

أمّا الباب الخارجي لا يغلق فهو مفتوح أبدا "السّوافة ما كانوش يسكّروا في ديارهم، ما عندهمش حاجة يخافوا منها"¹⁵ وفي ذلك دلالة على تفشّي الأمان بين النّاس والثقة العمياء في ذلك الوقت، ويقال أن لفظة 'الصّبّاط' جاءت من الكلمة الفرنسيّة المركّبة son porte بمعنى بلا باب، كغيرها من العديد من الكلمات الأجنبية التي عزّبت تماشيا مع طبيعة اللغة العربيّة، وتسربت داخل اللهجة السّوفيّة، ومن خلال المشهد السّابق ترسم في مخيلة القارئ صورة للعمران الصّحراوي المختلف.



أمّا من زار هذه المدينة فيجد بقايا هذه الدّيار أو حتّى ديارا مازالت صامدة في وجه الزّمن تتحدّى حرارة الشّمس وتستقبل عين النّاظر لها الدّي يستغرب مدى مقاومتها وصمودها.

كما أنّ وجود بئر الماء والتّخيل شيء أساسي في منازل الوادي، وكذلك القُـبـ، ولعلّ ما تغيّر فيها اليوم هو وجود الأبواب الموصدة التي لم تكن تغلق في الماضي لتوفّر الأمن.

ولا تتوقّف هذه الشّخصيّة عند وصف الرمال والمنازل والمساجد بل وتذكّر ناس الوادي وأهلها، فتقول: "أمّا النّاس هناك، فقد كانت سرّائهم على ألسنتهم وفي أكفّهم لا يوارون منها شيئاً، وكانوا على خشونة عيشهم كرماء كالغيث، طيّبين، يرضون بالقليل، ويرضون أن تقع الأذية عليهم بدل أن تصدر منهم فهم يقولون "بات على غيض وما تباتش على ندامة أكثر مهنهم الفلاحة "الأرض والغرس يا وليدي يعلمان الإنسان البذل والعطاء دون مقابل، لذلك كان أجدادك كرماء". فأخبرتها أنّ كثيراً ممّا قالتها غدا فلكلورا لا يوجد إلّا في المتاحف أو في المناسبات"¹⁶ وهي حقيقة يقف عندها كلّ من زار هذه المدينة وتعرّف على كرم وطيبة أهلها، حيثُ ترسّخت في ذاكرتها مدى تحليّهم بالقناعة وترقّعهم عن الأذية.

أمّا عن الجانب الاقتصادي فكانت الفلاحة والرّعاية أهم ما امتهنوا وهنا نشير إلى مدى مساهمة الفلاحة الصّحراويّة في إنعاش الاقتصاد الوطني في العصر الحالي.

لقاء والدة 'إسلام المرادي' مع 'حسن شرقي' ابن بلدها أيقظ حنينها للوطن فراحت تستذكر تفاصيل حكّتها لها جدّتها السّوفيّة عن صغرها ومغامراتها ، تقول: "وحدّثني عن بعض مغامراتها مع النّخلة، فقد ذهبت يوماً مع بنات خالاتها وابن عمّها التي كانت معجبة به، إلى بستان زوج جدّتها، وأكلوا 'البلح' المتساقط من النّخلة، وحين كان ابن عمّها منشغلاً بأشياء أخرى في البستان، تنافس على الصّعود إلى النّخلة، والرّهان هو أنّ التي تصعد أكثر هي التي تتزوّج ابن عمّها وكان اسمه (حمودة) فكلّهنّ صعدن درجتين أو ثلاثة إلّا هي أخذها الحماس فوصلت إلى المنتصف، ولكنّها حين

نظرت إلى الأسفل ذعرت وأخذت تصيح، فسمعها (حمودة) فهرع إليها يجري وصعد لكي ينزلها، ونجح في أن ينزلها قدر 'كرنافتين' وفشل في الباقي، لأنّها كانت متشنّجة كثيرا فسقطا من الشّجرة فكان ظهره على الأرض وهي فوقه، فكسرت يده، وسلمت هي¹⁷ وهو مشهد فيه من الشّاعريّة في وصف النّخلة ومرح الصّغار وتصوير تفكير البنات وترسخ فكرة الرّواج من ابن العم منذ الصّغر حتّى أنهنّ غامرت بأنفسهنّ وصعدن النّخلة للظّفر به زوجا، فمن تصعد أعلى يكون 'حمودة' من نصيبها.

فكانت 'نعيمة' الفائزة من بينهما وبقيت تفتخر بإنقاذه لها وبكسر يده لأجلها. لكنّ القدر حال دون زواجهما بموت 'حمودة' وزواجها من رجل آخر هو والد 'إسلام'

أمّا 'إسلام المرادي' فتستذكر صورة الصّحراء الموحشة المخيفة، عندما تتذكّر وفاة والدها، تقول: "حين مات أبي أحسست ما يحسّ به من قذف في الصّحراء عاريا من كلّ شيء، يعافر الشّيء والمدى المفتوح"¹⁸ حيثُ تصف حال وشعور من فقد والده كأنّما فقد طعم الحياة والوجود وغدا مفرغا من أي شيء، كمن يلقي في صحراء دون غذاء وماء ولا دليل، فهي تعاني من الضّياع والتّيّ والفقد والخوف والألم.

لتكون صورة الصّحراء هنا وحضورها موحيا بالصّعوبات التي تواجه ضائعا في ذاك الفضاء المفتوح، تحاصره الرّمال من كلّ اتّجاه وهو لا يملك حيلة لينقذ نفسه، فتكون بطعم الموت، الألم، الضياع.

في حين يصف 'حسن شرقي' لنا مدينة الوادي في رحلة عودته من الجزائر بسمت الحنين والشّوق للوطن الأمّ، "كان ذلك حالي إلى أن وصلت 'وادي سوف' برمالها الدّهبيّة، وشمسها الهادئة التي لا تعكّرها الغيوم، يحدث لي دائما إن سافرت وعدت، وعند مداخل بلادي يضطرب فيّ شوق قديم، هو شوق الأمكنة، ما أحلى بلادك حين تغيب عنها"¹⁹ ترتسم ملامح 'إسلام المرادي' على صفحات الجريدة التي يقرأها،

فيراقب الطّريق حتّى يتجاوز ذلك، إلى أن يصل لمدينته التي يراها بمنظر أجمل ممّا كانت عليه بفعل الحنين والبعد عنها.

وذكر 'حسن شرقي' مدينة الوادي في آخر سطر من الرّسائل التي كان يرسلها لإسلام المرادي، وكذلك ذكرها في ردّه على رسالتها التي أخبرها فيها عن مدى تغيّره بفضل كلامها الذي كانت تقول له وإيمانها الكبير الذي تحلّت به، حيث أدرك مدى قرب الله من عبده وتوفيّقه له، وأخبرها عن تعلّقه بالصلاة بعدما كان يعيش فراغا دينيا وحياة دون هدف ولاوعي بالوجود، حيث بدأت رحلة معانقة الرّوح والبعد عن المعاصي والملذّات وعصيان الجسد.

رسالة قالت فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كيف حالك يا سيّ حسين، وكيف حال أهلك، ووادي سوف كلّها، برمالها المذهّبة ونخيلها المعمّدة وممائها الرّزّاء، وشمسها الّلافحة"²⁰ وهنا نلمس تصوّرا آخر للصّحراء من لدن هذه الشّخصيّة تبعاً لحالتها التّفسيّة، فعندما رأت صورة والدها شعرت بالتّيه كضال في الصّحراء، بينما في هذه الرّسالة تكتب بلغة الحنين تسأل عن حال 'حسن' وأهله وموطنه وادي سوف، برمالها ونخيلها وشمسها وهو ما يوحي بتراسل الحواس وشوقها لسكان تلك الصّحراء وفرحها الكبير للتّغيير الكبير الذي حصل لهذا الرّجل بفضلها.

واستمرّ تخلّل الرّسائل لجوّ الرواية وفيه تستحضر رمال الصّحراء ومدينة الوادي، ومعها تتراسل الحواس والمشاعر، فيعترف 'حسن' لإسلام' بماضيهِ وما كان عليه وعن المنام الذي أوصله إليها، "فما أجمل الصّحراء وما أعجبها، أجيئك من الصّحراء أحمل في كفيّ مناما لا أفهمه. فأرجع وقد مُلئت كفاي نورا واستبدلت القفار التي كانت

تسكنني بقطع من رياض.. أمّا الرّمْل الذي قد طلبته مِنِّي. فلن أبعث لك منه بشيء فتعالِي أنت واسكنيه. إن رضيت بي زوجاً"²¹ ولعلّه من الطّبيعي أن يتّصل الكاتب ببيئته والمكان الذي يعيش فيه، فنجدّه مبعوثاً بين صفحات روايته، من هنا تحضر مدينة الوادي في هذه الرّواية وخاصّة في الرّسائل التي تشترط تحديد المرسل ومكانه أي عنوانه.

حيثُ مثّلت الصّحراء نقطة الانطلاق نحو التّغيير من واقع وحاضر وضع للشّخصيّة البطلة إلى رفعة الرّوح والتوبة والالتزام وهي أيضاً نقطة الانطلاق في رحلة الشّخصية من جنوب الوطن إلى الوسط وبالضّبط الجزائر العاصمة (الحراش).

ونظراً لما تحمله الوادي ورمالها من قيمة لدى الكاتب، فهي انتماء وأصله وبلده فراح يوظّفها في طلبه الرّواج من 'إسلام المرادي'، كما لا يمكن تجاهل الأبعاد الدّلاليّة للرّمال والصّحراء في شاعريّتها وتعبيرها عن الحب ومدى التعلّق بالآخر، فكم من قصائد غزليّة كتبت في الصّحراء وعن ساكنيها.

يمكن القول أخيراً أن استحضار التّراث الثقافي الجزائري الصّحراوي كان بمثابة تعبير عن الانتماء لهذا الموروث المادي والهويّة الثقافيّة واعتزاز بها، حيثُ لم يغفل 'عبد الرّشيد الهميسي' عن استحضار ماضي أمته ومجتمعه الذي ينتمي إليه ويعبّر عمّا يشغله من خلال شخصيّات روايته القصيرة هذه، كما لا يمكن تجاهل الأبعاد النّفعية للخطاب الأدبي في التّرويج للسياحة وتشويق القراء الصّحراء عبر سحر التّخييل والوصف الدقيق لجمال مناظرها ورمالها الدّهبية وكذا رحابة فضاءها الذي يبعث على التأمّل.

الخاتمة:

انطلاقاً ممّا سبق تمّ التوصل للتّائج التّالية:

-تخضر الصّحراء في رواية "ما تشتهيهِ الرّوح" للكاتب الجزائري الصّحراوي "عبد الرّشيد هميسي" على مستويين اثنين، فحضورها كان متباينا بين المجون والإباحية في ما يخص 'حسن' وما كان يقوم به عندما غلبته نفسه وتتبع شهوات جسده، ومن جهة أخرى استحضرتها الحاجة 'نعيمة' والدة 'إسلام المرادي' بطريقة الشّوق والحنين لما كانت تحكيه لها جدّتها عن مسقط رأسها، فبين الماضي الجميل للصّحراء والحاضر المتغيّر تتجلى قيمة التّناقض في المكان بين القداسة والتّدنيس.

-كان حضور الصّحراء في هذه الرواية متباينا بين التّقديس والتّدنيس، بين الجمال والبشاعة ودلالات التّيه والضّياع.

-تبرز قيمة المفارقة في توظيف المكان، فما هو مألوف لدينا أنّ الصّحراء بيئة محافظة، سكّانها معروفون بالأخلاق الحميدة وحفظ كتاب الله إلى غير ذلك، إذ عكس الكاتب هذا التّصوّر وكسر أفق توقّع القارئ، فربط الفساد بشباب من الصّحراء يتيه في عالم اللّذة ويغرق في بحر شهواته، يرسله القدر والنام إلى مدينة الحراش ليلتقي بامرأة تكون سببا في توبته وعودته إلى الله، والرّابط بينهما دعاء في ظاهر الغيب من لدن امرأة صالحة الرّواج من رجل فاسد يتوب على يديهما فكان المنام شفرة بينهما ولغزا يفكّ في آخر الرواية وينتهي بالتّوبة وقبول عرض الرّواج والعودة لرمال الوادي.

-استحضار التّراث الثقافي الجزائري الصّحراوي كان بمثابة تعبير عن الانتماء لهذا الموروث المادي والهويّة الثقافيّة واعتزاز بها، حيث لا يغفل الكاتب المعاصر عن استحضار ماضي أمّته ومجتمعه الذي ينتمي إليه ويعبّر عمّا يشغله من خلال شخصيّات روايته القصيرة هذه، كما لا يمكن تجاهل الأبعاد التّفنّية للخطاب الأدبي في التّرويج للسياحة وتشويق القراء لزيارة الصّحراء وهو ما لم يغيب عن ذهن 'عبد الرّشيد هميسي' الذي يستذكر الصّحراء في أكثر من موضع في روايته وضمن رسائله.

-استحضّر 'عبد الرّشيد هميسي' نماذج من التّراث المادي واللامادي لصحراء وادي سوف متمثّلا في الأكل، وغط الحياة، واللباس التّقليدي، والمباني العتيقة وكذا المساجد وكلّ ما يتعلّق بحفظ القرآن القديم بالطريقة التّقليدية عبر الألواح الخشبيّة وسط باحات المساجد وعلى الرّمال الذهبيّة، بالإضافة إلى استذكار العادات والتّقاليد المرتبطة بالاحتفالات والمناسبات من خلال الرقصات الشّعبية وكل ما يرسم مشاهد الفرح بالرّي التّقليدي بالبرنوس وحمل المكحلة والرّقص على أنغام الرّنة وهي أجواء ماتزال مرسومة في ذاكرة هذا المجتمع.

الهوامش:

¹ -ابن منظور: أبو الفضل عبد الله محمد بن مكرم بن أبي الحسن أحمد الأنصاري، لسان العرب، تحقيق عبد الله بن عبد الكبير وآخرون، مجلد5، جزء46، مكتبة نور لسان العرب، دار المعارف، دط، 1981، ص4809.

² - المرجع نفسه، ص4809.

³ -« Patrimoine: pa.tRi.mwan/.n.m:biens de famille» Alain Rey: Le Robert Micro Poche,12avenue d'Italie Paris,novembre1993,p914.

⁴ -محمدي وهبة، كامل المهندس: معجم مصطلحات العربيّة في اللّغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 1984، ص93.

⁵ -المرجع نفسه، ص93.

⁶ -جابر عصفور، هوامش على دفتر التنوير، المركز الثقافي العربي، ط1، الدّار البيضاء-المغرب، 1994، ص22.

⁷ - جابر عصفور، قراءة التّراث التّقدي، مؤسّسة عيال، ط1، دب، 1991، ص60.

⁸ -عبد السّلام بنعبد العال، ميثولوجيا الواقع، دار توبقال، ط1، الدّار البيضاء-المغرب، 1999، ص37.

⁹ -عبد الرّشيد هميسي، ما تشتهيهِ الرّوح، الجزائر تقرأ، السّنداسي الثّاني، 2017، ص17.

¹⁰ -المدونة، ص36.

¹¹ - المدونة، ص36.

¹² - المدونة، ص37.

¹³ - المدونة، ص37.

¹⁴ - المدونة، ص38.

¹⁵ -المدوّنة، ص38.

¹⁶ - المدوّنة، ص38، 39.

17 - المدوّنة، ص39.

18 - المدوّنة، ص48.

19 - المدوّنة، ص84.

20 - المدوّنة، ص94.

21 - المدوّنة، ص98، 99.

قائمة المصادر والمراجع:

أ-المصادر:

1- هميسي عبد الرّشيد، ما تشتهيهِ الرّوح، الجزائر تقرأ، السّداسي الثّاني، 2017.

ب-المراجع:

2- ابن منظور، أبو الفضل عبد الله محمد بن مكرم بن أبي الحسن أحمد الأنصاري: لسان لعرب، تحقيق عبد الله بن

عبد الكبير وآخرون، مجلد5، جزء46، مكتبة نور لسان العرب، دار المعارف، دط، 1981، ص4809.

3- بنعبد العال عبد السلام، ميثولوجيا الواقع، دار توبقال، ط1، الدّار البيضاء-المغرب، 1999، ص37.

4- عصفور جابر، قراءة التّراث التّقدي، مؤسسة عيبال، ط1، دب، 1991، ص60.

5- عصفور جابر، هوامش على دفتر التّنوير، المركز الثّقافي العربي، ط1، الدّار البيضاء-المغرب، 1994، ص22.

6- وهبة مجدي، المهندس كامل: معجم مصطلحات العربيّة في اللّغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 1984،

ص93.

7-Alain Rey: Le Robert Micro Poche, 12avenue d'Italie Paris, novembre 1993, p914.